



صالح الدين والحركة الإسماعيلية

الدكتور دريد عبد القادر نوري

الموسم

تتضمن العلاقات السياسية بين صالح الدين والإسماعيلية في نطاق فترة البحث (٥٧٠-٥٨٩هـ/١١٧٤-١١٩٧م) بمجموعة أعمال تمثلت في محاولتين للقضاء على صالح الدين سنة ٥٧٠-٥٧١هـ/١١٧٥-١١٧٦م، أعقبها هجومه غير المتكامل على حصن مصياف الإسماعيلي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م والانتهاه بعقد صلح بين الطرفين انسحب بموجبه من حصار القلعة، وقد وردت روايات عن رسائل تهديد كان يرسلها الإسماعيليون إلى صالح الدين في تلك الفترة. ثم في عملية مقتل المركيس (كونراد) صاحب صور سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وعلاقة صالح الدين بمقتله. وسوف أتطرق إلى تبيان ذلك بالتفصيل، مقدماً لذلك بتاريخ موجز لنشوء الحركة الإسماعيلية، وعلاقتها بالفئات المناوئة لصلاح الدين ليكون البحث وحدة متكاملة.

يبدأ تاريخ الإسماعيلية بوفاة الإمام جعفر الصادق (ع) سنة ١٤٨هـ حيث انقسم أتباعه إلى فرقتين أساسيتين^(١)؛ الأولى جعلت الإمامة إلى موسى الكاظم فالأئمة من نسله حتى الإمام الثاني عشر - الإمام الغائب- وهم المعروفون الاثني عشرية، والفرقة الثانية جعلت الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ثم إلى ابنه محمد بن إسماعيل فالأئمة من أبنائه وهم المعروفون بالإسماعيلية^(٢) الذين شكلوا بعد عمل طويل بالسر، فرقة فافت في التحامها وتنظيمها في كل من الجذب التثقيفي والانفعالي كل منافسيها. ففي مكان التوقعات المشوشة والإيمان البدائي بالخوارق للفرق السابقة، أحكم عدد من العلماء المتميزين نظاماً للعقيدة الدينية على مستوى فلسفي عال^(٣).

وعلى أية حال فإن بؤادر الدعوة الإسماعيلية ظهرت منذ عهد الإمام جعفر الصادق، وكانت سرية يعمل على ترويجها في الخفاء الإمام إسماعيل في حياة أبيه^(٤)، وبمساعدة دعائه الأربعة

(١) وقيل أيضاً انقسم أتباع جعفر الصادق بعد وفاته إلى ست فرق منها ثلاث رئيسية، وقيل اثنتان، فبالإضافة إلى الفرقتين المنوه عنهما أعلاه ذكرت الفرقة النانوسية وهم الزاعمون بأن جعفر لم يمت ولا يموت وهو القائم المهدي وسوف يرجع.

لويس، أصول الإسماعيلية: ٩٥-٩٦.

(٢) الكرمانى، راحة العقل، انظر مقدمة المحقق مصطفى غالب: ٢٢-٢٣؛ سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية: ٤-٥؛ انظر:

جب، صلاح الدين: ١٦.

(٣) لويس، الحشيشية: ٤٠.

(٤) درس المستشرق برنارد لويس الحركة الإسماعيلية، وناقش العديد من المصادر التي تحدثت عن إسماعيل بن جعفر الصادق الذي يعتبر مؤسس الدعوة الإسماعيلية وتوصل إلى ما يلي:

١- أن إسماعيل مات في حياة أبيه جعفر.

٢- أن جعفر أُنزِعَ عن إسماعيل حق الإمامة بسبب أخلاقه الذميمة، انظر: أصول الإسماعيلية: ١٠٧-١٠٨.

وهم ميمون القداح، ومبارك بن جعفر، والفضل بن عمر، وحمدان بن أحمد. وفي عهد محمد بن إسماعيل، الذي كان على جانب كبير من الثقافة والعبقرية، انتقل مركز الدعوة إلى (سملا) التي أطلق عليها فيما بعد اسم (محمد آباد) نسبة إليه^(٥).

وقد استقر محمد بن إسماعيل أخيراً في مدينة تدمر، وعمل منها على نشر دعوته وتنظيمها. وعند وفاته سنة ١٩٣هـ خلفه ابنه (أحمد الوفي) الذي نقل مركز الدعوة إلى مدينة سلمية في سوريا التي أصبحت في عهده مركز الدعوة والدعاة ودار هجرة للأئمة المستورين. وعند وفاة الإمام الوفي سنة ٢١٢هـ تسلم الإمامة ابنه رضي الدين عبد الله الذي انتقلت في عهده الدعوة الإسماعيلية من طور التأسيس إلى طور العمل والظهور من أجل تأسيس دولة إسماعيلية قوية. وقد نص على ولده من بعده (عبد الله) الذي توجه إلى المغرب وأعلن الخلافة الفاطمية هناك. وبذلك قامت الدولة الفاطمية التي انتقلت إلى مصر سنة ٣٥٧هـ^(٦).

استمر خلفاء الدولة الفاطمية حتى مجيء المستنصر بالله الذي ازداد في عهده نفوذ الوزراء الفاطميين. فقد استأثر الوزير بدر الدين الجمالي بالسلطة في مصر، وغالى ابنه الأفضل باغتصاب حقوق ولي العهد نزار^(٧)، والبيعة لأخيه الأصغر (المستعلي بالله). وقد انسحب فريق من الناس إثر هذه البيعة، وأعلنوا ولاهم لإمامة نزار وأولاده من بعده^(٨). وكان على رأس هؤلاء «الحسن بن الصباح»^(٩) الذي بدأت في عهده الحركة الإسماعيلية بطور جديد، ربما كان السبب في ذلك أن الدعوة الإسماعيلية كانت قد فشلت في تحقيق أهدافها، والدولة الفاطمية كانت في طريقها إلى الانهيار، لذلك كان لا بد من التفكير بأسلوب جديد للعمل من أجل إبقاء روح الثورة ضد الكيان العباسي. وقد أصبحت الحركة الإسماعيلية الجديدة أكثر فعالية وتنظيماً من الدعوة

(٥) الكرمانى، راحة العقل، انظر مقدمة المحقق مصطفى غالب: ٢٢ ٢٣: سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية: ٥ ٦.

(٦) انظر: الحشيشة: ٤٣-٤٤، مصر في عصر الدولة الفاطمية: ٧ ٩، إحسان طبري، نبذة عن الحركة الإسماعيلية، مجلة العلوم، ٨٤ السنة ١٢ (بيروت ١٩٦٧): ٣٥.

(٧) قيل أن الإمام المستنصر نص على إمام نزار من بعده، إلا أن الوزير الجمالي، لحقد قديم بينه وبين نزار، عين المستعلي بدلاً عنه. ولأن المستعلي كان حفيداً للوزير، لذلك غادر نزار القاهرة صاحبة أتباعه المخلصين، وهذا هو سبب انقسام الدعوة الإسماعيلية، غالب مصطفى، تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٨٢ ١٨٣.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى: ١٣/٢٣٦.

Ency. Britannica, II, P.621

(٩) الحسن بن الصباح: هو الحسن بن علي بن محمد الحميري، ولد في مدينة قم وكان كوالده من الشيعة الاثني عشرية. غير أنه وقع تحت تأثير أحد الدعاة الفاطمية واسمه (عامر دراب) وتنتقل على عدد من الدعاة الإسماعيلية، وفي رمضان سنة ٤٦٤هـ حزينان ١٠٧٢م جاء الداعي (ابن العطاش) إلى الري والتقى بالحسن بن الصباح ورجاء بالذهاب إلى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية، فذهب إليها بعد أن عمل كوكيل لابن عطاش في مدينة أصفهان لمدة سنتين الحشيشة: ٥٢: Brown, Aliterary History of Persia, II, PP. 262-203.

وكان الحسن هذا، رجلاً طموحاً، لم يقنع أن يكون مبعوثاً يدعو إلى مذهبه، بل كان يحلم بإقامة دولة جديدة، وكان يقول أنه يستطيع ومعه ستة من المؤمنين بمذهبه أن يكون سيد العالم، وقد تمكن من العودة من مصر إلى فارس ثم تسلل إلى قلعة الموت واحتلها وبعدها تمكن أتباعه من السيطرة على عدد من القلاع الحصينة في جبال فارس، صبح الأعشى: ١٣/٢٣٧، شعلة الإسلام: ٤٢، انظر: دائرة المعارف الإسلامية: ٧/٤٣٥، مصطفى غالب، اعلام الإسماعيلية (بيروت، ١٩٦٤): ٢٢٢ ٢٢٨.

الإسماعيلية القديمة، فقد غدت «جمعية سرية لم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها إلا زعماءها الأقلون وقادة أفكارها المقربون، بعد أن قطعوا مراحل التكريس وأقسموا القسم الغليظ»^(١١)، بينما كانت الأكثرية الساحقة من الأتباع لا تعرف عن أمر هذه الجمعية إلا الشيء القليل، والذي كان يطلعهم عليه الدعاة وبقدر معلوم^(١٢).

وقد أطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة تسميات عديدة منها: الحشاشين Assassins وهو اصطلاح عام للجماعات الفدائية السرية، وقد عني به في معظم اللغات الأوروبية (المغتال) الذي يقتل خلسة أو بالخيانة «والذي يكون ضحيته شخصية مرموقة، ودافعة إلى ذلك غيرة عمياء أو جشع»^(١٣).

واعتقد آخرون بأن كلمة حشاشين، جاءت صفة للإسماعيلية لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدر، وأن جماعة الفدائية الذين كانوا يدفعون الاغتيالات، يدفعون إلى تعاطي الحشيش المخدر، حتى يصبحوا كالألات لتنفيذ مهماتهم^(١٤). وقد وصف الرحالة ماركو بولو المنظمة الإسماعيلية بعد مائة عام وأكد ما قيل من أن الإسماعيليين كانوا يتعاطون الحشيش المخدر^(١٥).

غير أن بعض دارسي تاريخ الحركة الإسماعيلية، وبخاصة الإسماعيليين منهم قالوا بأن الذين زعموا بأن الإسماعيلية كانوا يتعاطون الحشيش المخدر واهمون لأن الرأي قديم^(١٦)، ولم يرد في كل المصادر الإسماعيلية ما يؤكد^(١٧)، وأن انصياع الفدائية التام لشيخهم - كما ذكر الإسماعيلي مصطفى غالب - كان بسبب الثقة والإيمان القوي بالعقيدة والإمام المعصوم^(١٨).

وقد سمي الإسماعيلية أيضاً بالسبعية، لأن الإمام محمد بن إسماعيل هو الإمام السابع لهم، ولتميزهم عن طائفة الاثني عشرية^(١٩). ولأن الدور التام سبعة، كما يعتقد الإسماعيلية، بدليل أن السماوات والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع والأعضاء سبع^(٢٠)... الخ مما هو متكون من العدد (سبعة).

(١٠) بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (القدس: ١٩٢٨) ٩٢.

(١١) أنظر: محمد عبد الفتاح عليان، قرامطة العراق (القاهرة، ١٩٧٠) ١٨ - ١٩.

(١٢) الحشيشة: ١٢ - ١٣، أنظر:

Ency. Britannica (Art. Assassins) 11, P. 621, DuBors, Dictionnaire du France, P. 83.

(١٣) هيوارس: ١، دائرة المعارف الإسلامية (مادة حشاشين): ٤٣٤/٧، أنظر أحمد أمين، يوم الإسلام: ١٠٣.

(١٤) Look: Rosebault, op. cit., 109-111

(١٥) مما يدل على قدم الرأي القائل بتعاطي الإسماعيلية للحشيشة ما وجدته عند مقارنتي للقاموس الفرنسي Larousse ما بين طبعة سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٦٨ بكلمة Assassins. فقد أكدت الطبعة الأولى القول بتعاطي الإسماعيلية للحشيش المخدر، بينما حذف هذا الرأي من طبعة سنة ١٩٦٨ أنظر:

Nouveau petit Larousse illustre (Paris, 1939) P. 1197.

وقارن هذه الصفحة من نفس المصدر السابق مع طبعة سنة ١٩٦٨ صفحة رقم (١١٤٤).

(١٦) Look: Ency. de l'Islam (Art. Hashishiyya) (Paris, 1971) 111, P. 276

(١٧) تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ١٩٢.

(١٨) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية (مادة السبعية) ١١ / ٢٤٥ - ٢٥٩.

(١٩) النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (القاهرة: ١٩٦٥ م) ٣٨٤/١.

وقد سموا أيضاً «الباطنية»، وذلك أنهم يقولون لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل. وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة أطلقوا عليها اسم «المثل والمثول» أي الظاهر والباطن^(٢٠). هذا بالإضافة إلى ما أطلق عليهم من تسميات أخرى كالقرامطة والبابكية والمحمرة والملاحدة^(٢١) وغيرها مما أسماهم بها أعداؤهم.

ورغم هذه التسميات المتعددة، فإني اعتمدت تسميتهم بالإسماعيلية لأنه أقرب الأسماء لواقع الحركة التاريخي، نسبة للإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ولأن كلمة حشاشين مختلف في أمرها، وهي تسمية حديثة وإذا صح ما قيل في استخدام الإسماعيلية للحشيش المخدر، فهناك جماعات أخرى تستخدم الحشيش أيضاً، كذلك فالباطنية مصطلح يطلق على كل من يستخدم التأويل الباطني للنصوص المقدسة سواء كان إسماعيلياً أو لم يكن، علماً بأن الصوفية تعتمد التأويل الباطني.

وعلى أية حال فإن الحركة الإسماعيلية الجديدة «الحشاشين» ظهرت بشخص الحسن بن الصباح الذي تمكن من احتلال (قلعة الموت) سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م^(٢٢) الواقعة في سلسلة جبال البز بإقليم مازندان^(٢٣) على بعد خمسين فرسخاً شمالي بحر قزوين، والتي ترتفع عن سطح البحر بحوالي ١٠ آلاف قدم^(٢٤). وقد أصبحت مركزاً للدعوة ما بين سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م إلى سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م^(٢٥). وقد ساعد سوء الأحوال الاقتصادية والإدارية على نشاط هذه الحركة، كما وجد البعض في هذه الحركة السبيل للتعبير عن سخطهم السياسي تجاه الخلافة العباسية علماً بأن الدعوة اتخذت لها - في هذه الفترة - أسلوباً جديداً في العمل والتنظيم فاستخدمت الاغتيال وبذلك تحولت من جمعية نظرية تؤمن بالأسلوب السلمي، إلى جماعة حركية تؤمن بالاغتيال والتنظيم السياسي الدقيق^(٢٦).

ولم يكتف الحسن بن الصباح بنشر دعوته في إيران، بل أخذ يرسل الدعاة إلى سوريا لدعوة الإسماعيلية القدماء الموجودين فيها. والعمل على ضمهم للدعوة الجديدة. وقد وجد الحسن في سوريا منطقة ملائمة أكثر من غيرها، فبالإضافة إلى وجود عدد من الدعاة فيها، فقد كانت منطقة سوريا نادراً ما عرفت الوحدة السياسية كما أن طبيعة أراضيها المتموجة وجبالها العصية تساعد على اتخاذها مركزاً للدعوة والدعاة^(٢٧).

(٢٠) أنظر: الشهرستاني. الملل والنحل (القاهرة: ١٣٢هـ) ٢/٢٩. تاريخ ابن الفرات. م: ٤/ ١٥٥. راحة العقل: ٤٩. محمد كامل حسين. طائفة الإسماعيلية (القاهرة: ١٩٥٩) ١٤٨ و ١٦٣.

Ency. of Islam (Art. Albatinyy), 1, PP. 1098 - 1099.

(٢١) الملل والنحل: ٢/ ٢٩. محمد الديلمي. بيان مذهب الباطنية وبطلانه (استانبول: ١٩٣٨) ٣.

(٢٢) هيوارس. ١. دائرة المعارف الإسلامية (مادة حشاشين): ٧/ ٤٣٥.

Ency. Britannica (Art. Assassins) Vol. 11.

(٢٣) وليم لانجر. موسوعة تاريخ العالم. اشرف على ترجمتها محمد مصطفى زيادة (القاهرة: ١٩٥٩) ٢/ ٩٥.

Ency. of Arabic Civilization (The Arab East) P.63 (٢٤)

Ency. de Islam (Arat Alamut) Vol. 1, PP. 364-365 (٢٥)

(٢٦) أنظر: محمد كامل حسين. طائفة الإسماعيلية: ٦٣. طه أحمد شرف. دولة النزارية (القاهرة: ١٩٥٠) ١٢٧-١٢٨.

(٢٧) الحشيشية: ١١٣-١١٤.

ومثلما عمل الإسماعيليون في إيران، حاول أتباعهم في سوريا، منذ البداية، العمل بمختلف الوسائل للسيطرة على الحصون والقلع الحصينة لاتخاذها مقرا لأعمالهم، واستخدامها «كقواعد في حملة الإرهاب»^(٢٨) التي شنوها ضد أعدائهم من القادة والأمراء السنيين، ومن وجدوا فيه خطرا يهدد دعوتهم.

فقد سيطروا على حصن مصياف والقدموس وقامية، وكونوا لهم جمعيات علنية في دمشق وحلب، وقاموا بسلسلة من عمليات الاغتيال كان ضحيتها الكثير من كبار رجال الدولة العباسية وأمرائها منهم الأمير خلف بن ملاعب سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٦م^(٢٩). وأتاك الموصل مودود سنة ٥٠٧هـ^(٣٠)، كما قتلوا أيضا آق سنقر البرسقي -أتاك الموصل- سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م في جامع الموصل العتيق أثناء تأديته صلاة الجمعة^(٣١).

ونتيجة لهذه الاغتيالات التي قام بها الإسماعيلية في الشام: فقد عظم أمرهم وقويت شوكتهم وخشيهم الناس وامتلاؤا منهم رعبا، وتمكنوا من دخول عدد من الحصون بأعمال الحيلة، كسيطرتهم على مدينة بانياس سنة ٥٢٠هـ^(٣٢). غير أنهم سلموا هذا الحصن للصليبيين سنة ٥٢٤هـ بعد توأطنتهم معهم^(٣٣). فقد كان الإسماعيلية قد نكبوا في ذلك العام، حيث ثار عليهم الأحداث والعامه بدمشق وقتكوا بهم وقدر عدد قتلهم بألف رجل^(٣٤)، وقيل ستة آلاف^(٣٥). مما يدل على أعدادهم الكبيرة التي كانت بدمشق، وقد تعلم الإسماعيلية بعد هذه النكبة أن المدن الكبيرة لا تصلح أن تكون مركزا لحركتهم.

تجدد نشاط الحركة الإسماعيلية في منطقة الشام، بعد تلك النكبات، بوصول داعيتهم الجديد «راشد الدين سنان»^(٣٦) إليهم. فقد عمل على تنظيم الإسماعيلية في نظام واضح ووضعا

(٢٨) الحشيشية: ١١٥.

(٢٩) كان الأمير خلف بن ملاعب صاحب حصن أقاميه الذي استولى عليه الإسماعيلية بعد مقتله. ولمعرفة المزيد عنه أنظر: ذيل تاريخ دمشق: ١٤٩: زبدة الحلب ١٥١/٢.

(٣٠) كان الأمير مودود رجلا مجاهدا عرف بحسن تفواد. قتله الإسماعيلية بعد انتهائه من صلاة الجمعة في شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧هـ في دمشق عندما كان عازما على توحيد الجيوش الإسلامية لمحاربة الصليبيين ولمعرفة المزيد أنظر: الكامل: ٤٩٦/١٠: ٤٩٧: ذيل تاريخ دمشق: ١٨٧.

(٣١) كان الأمير آق سنقر البرسقي من كبار الأمراء المجاهدين ضد الصليبيين. تقيا عادلا كما وصفته جميع المصادر. وكان قد كسب مودة أهالي الشام. حتى تبوأ قيادة المسلمين في الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة. غير أن الإسماعيلية اغتالته لأنه هدد مصالحها، وربما ذلك بتأثير الصليبيين.

أنظر: الكامل: ٣٣٧ ٣٣٦/١٠: ذيل تاريخ دمشق: ٢١٤: زبدة الحلب: ٢٣٥/٢. مرآة الزمان: ١١٦ ١١٧: ابن ميسر. أخبار مصر (القاهرة ١٩١٩): ٢٠.

(٣٢) أنظر: الكامل: ٦٣٢/١٠: ذيل تاريخ دمشق: ٢١٥.

(٣٣) ذكر ابن شداد أن الإسماعيلية سيطرت على قمة بانياس سنة ٥٢٠هـ بقيادة داعيتها بهرام. ولما قتل بهرام سنة ٥٢٤هـ أرسل نائبه الإسماعيلي أبو صالح العجمي. الصليبيين وبذل لهم تسليم الحصن إليهم، فوصلوه وتسلموه منه، إلا علاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة: ج ٢/ ١٤١.

(٣٤) تاريخ الأزمنة: ٣٥.

(٣٥) الكامل: ٦٥٧/١٠: المختصر في أخبار البشر: ٧/٥.

(٣٦) راشد الدين سنان: وهو مقدم الإسماعيلية في الشام، أصله من أهالي عقر السودان. قرية قرب البصرة. ذهب إلى حصن

في مركز قوي «حتى اعتبر المؤسس والقائد لفرقته»^(٣٧). ونقل مقر عمله من حلب إلى قلعة مصياف، وأسمي من بداية هذه الفترة (بشيخ الجبل)^(٣٨) وكانت مرتبته في الدعوة (داعي دعاة) ويليه في المقام (الداعية الكبير) ويليه (الداعية العادي) ثم يليه (الرفيق) وأخيراً الفداوية الذين اشتهروا بطاعتهم العمياء في تنفيذ أوامر سيدهم شيخ الجبل^(٣٩).

وقد جعل سنان الدعوة الإسماعيلية دقيقة في تنظيمها، تامة في سريتها وبراعة دعايتها، تلك الدقة التي أمنت بمبدأ «التدرج في الدعوة لما له من إغراء في نفوس الأتباع»^(٤٠)، وتلك الدعاية التي أضلت الكثيرين لأن الدعوة «كانوا يتكلمون مع الناس على قدر عقولهم... وكانوا يدخلون على كل فرقة من جهتهم»^(٤١). فقد قدموا للورعين احتراماً للقرآن والسنة، وقدموا للمثقفين شرحاً فلسفياً معتمداً على مصادر القدماء، كما قدموا للحانقين على الحكم العباسي فلسفة حركة معارضة حسنة التنظيم وقوية^(٤٢). ولذلك تمكنت هذه الحركة من كسب الكثير من الأتباع. وقد عدد أبو حامد الغزالي^(٤٣) الطوائف التي انخرطت في سلك الحركة، وذكر بأنهم ثمانية أصناف وهم: السذج من الناس الذين قلت بصائرهم في أمور الدين، وأصحاب العاهات من الذين يريدون الوصول إلى المراكز بطرق غير شرعية، وأولئك الذين انقطعت الدولة عن إسلافهم بدولة الإسلام من المجوس والنصارى، كذلك جماعة الملاحدة وأصحاب الملاحية والفسوق وبعض الفلاسفة من الذين وجدوا في رجال الحركة الإسماعيلية أعواناً لهم وأنصاراً، وكان المجتمع الإسلامي من قبل قد نبذهم، أضف إلى ذلك جماعة من المسلمين ممن انخدع بمذهبهم وحسبه أنه يمثل الحق^(٤٤).

وقد اتبع الإسماعيلية أساليب دقيقة وجديدة في الدعوة إلى مذهبهم أطلقوا عليها اسم

الموت. ولما ظهرت له نباهة وعقل سبرد صاحب الموت إلى حصون الشام لتزعم قيادة الإسماعيلية، وقد جرت له مع سلطان الشام حينئذ وهو نور الدين محمود عدة وقعات وتوفي سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م. انظر: مرآة الزمان: ق. ١. ج ٨ / ٤١٩: النجوم الزاهرة: ١١٧/٦ مرآة الجنان: ٤٤٨/٣: أيفانوف دائرة المعارف الإسلامية: ٦٩/٩ غير أن ابن جببر وصفه بشيطان الإنس. ويرى أن أتباعه قد اتخذوه إلهاً للأباطيل التي كان يزعمها والسحر الذي كان يفعله (رحلة ابن جببر: ٢٢٥) ويذكر الدويهي بأنه استغوى خلائق من أهالي جبال الشام وأباح لهم المحرمات (تاريخ الأزمنة: ٩٥).

Hodgson, The order of Assassins. P. 185 (٣٧)

(٣٨) تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢٠٧ و ٢١٢ :

Elisseeff, Nur-Din, 1, P. 42.

Brown, Aliteray History of Persia, 11, P. 209 (٣٩)

(٤٠) عليان، قرامطة العراق (القاهرة، ١٩٧٠): ١٩.

(٤١) الديلمي، بيان مذهب الباطنية: ١٥.

(٤٢) الحشيشية: ٤٠.

(٤٣) أبو حامد الغزالي: فقيه وعالم صوفي سني له العديد من المؤلفات عاصر الحسن بن الصباح والوزير نظام الملك. وحارب الإسماعيلية فكرياً. توفي سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م وللإطلاع على موقفه من الإسماعيلية انظر:

Watt. Muslim Intellectual, P. 73-74.

ولعرفة المزيد عن حياة الغزالي. انظر: المتوفي الحسيني. جمهرة الأولياء (القاهرة ١٩٦٧) ١ / ١٩٧ - ٢٠٠.

(٤٤) فضائح الباطنية، الدار القومية للطباعة والنشر (القاهرة، لم يذكر السنة): ٣٣-٣٦.

(البلاغ الأكبر) يمر فيها الشخص المراد كسبه للدعوة. قيل هي تسع مراتب وأهمها: التغريس والتأسيس ثم التشكيك ثم الربط وأخيراً الخلع ثم المسخ. نجمها بما يلي: كان الدعاة يبحثون عن الشخص الملائم حتى إذا ما اطمأنوا إلى أنه أصبح يضع ثقته فيهم أظهروا له ما تناقض من أمور عقيدته، بعدما يخفون عقيدتهم هم. ثم بعد ذلك يجعلون الشخص يرتبط بهم، ويقسم لهم القسم الغليظ بعدم إباحة الأسرار، ليدخل أخيراً في دور المصارحة والتنظيم بعدما يكون قد سلخ من عقيدته الأصلية^(٤٥).

وتاريخ الإسماعيلية في الشام، هو تاريخ الاغتيالات التي قاموا بها ضد المؤسسات السنية بصورة عامة «فلم يقاتل الحشيشية عادة الاثني عشرية أو الشيعة الآخرين، ولم يديروا سكاكينهم ضد النصارى أو اليهود المحليين»^(٤٦)، وهذا مما يدفع إلى التساؤل عن حقيقة التعاون بين الإسماعيلية والصليبيين من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة ثانية.

إن اتهام الحركة الإسماعيلية بالتواطؤ مع الصليبيين ربما أثير من قبل أعداء الحركة للطعن فيها. إلا أن الاغتيالات التي قاموا بها ضد جماعة السنة، وتعاون اليهود معهم، ووجود بعض الأدلة التي تثبت تعاونهم مع الصليبيين في مراحل مختلفة، فهي أدلة ترجح صحة تلك التهمة. ففي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م أرسل راشد الدين سنان -كما ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري- وفداً إلى أمليرك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق بين الطرفين ضد نور الدين ولوح له بأنه وقومه يفكرون بالتحول نحو النصرانية، وطلب منه مقابل ذلك إلغاء الضريبة التي فرضها فرسان الداوية من الصليبيين على بعض القرى الإسماعيلية. وقد استقبل أمليرك وفد الإسماعيلية بحفاوة بالغة وإكرام، لأنه أدرك النتائج الإيجابية التي ينطوي عليها ذلك الاتفاق^(٤٧).

ولما عاد وفد الإسماعيلية من القدس سقط في كمين لفرسان الداوية دمر على أثره، مما أثار غضب أمليرك، فبعث بكتاب توبيخ للجناة، وطلب من مقدم الداوية سجنهم، كما أرسل إلى سنان معتذراً وأعلمه أن الجناة نالوا عقابهم، فدفع موقف ملك بيت المقدس الإيجابي هذا، إلى بقاء العلاقات طيبة بين الجانبين^(٤٨).

وبعد وفاة نور الدين تجدد العهد المعقود بين الصليبيين والإسماعيليين على مناهضة صلاح الدين، والقيام بانقلاب داخل القاهرة للإطاحة بالحكم الأيوبي وإعادة الخلافة الفاطمية^(٤٩).

(٤٥) أنظر: العلوي، يحيى بن حمزة، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، تحقيق فيصل بد يزعون، شركة الاسكندرية للطباعة (القاهرة، لم يذكر السنة): ١٧، ١٩: الديلمي، بيان مذهب الباطنية: ٥.

(٤٦) الحشيشية: ١٥٣.

(٤٧) Elisseeff, Nur Ad-Din, 11, P. 688.

(٤٨) نفس المصدر والمكان السابق: الحركة الصليبية: ٢ / ٧٣٤ - ٧٣٥: دراسة في تاريخ مدينة صيدا: ١١٣-١١٤.

Runciman, op. cit, 11, PP. 396-397.

(٤٩) أنظر: الكامل: ١١ / ٤١٢.

Elisseeff, Nur Ad-Din, 11, PP. 688-690.

ويعتقد المؤرخ «كاهين» أن هناك علاقة بين الإسماعيلية وجماعة الاسبتاريين الذين أصبحوا حماة للإسماعيلية، وأن أولئك الذين اغتيلوا من الصليبيين إنما كانوا أعداء للاسبتاريين^(٥٠). وقد أيد المؤرخ الإنكليزي هـ جسون وجود مثل تلك العلاقة، واعتقد بأن هناك إشارات واضحة تدل على ذلك^(٥١).

أما علاقة الإسماعيلية باليهود، فكما يبدو أن عدداً كبيراً من اليهود — ممن كان مدفوعاً من قبل رأس الجالوت — كان يعمل بين صفوف الحركة الإسماعيلية لخدمة أهدافها. وقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين الذي زار منطقة الشام حوالي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م بأنه كان يقيم بين الإسماعيليين في الشام نحو أربعة آلاف يهودي «يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم، وهم أشداء لا يقدر أحد على قتالهم. وبينهم العلماء التابعون لنفوذ رأس الجالوت ببغداد^(٥٢) مما يدل على وجود علاقة راسخة بين زعماء اليهود ببغداد وقادة الحركة الإسماعيلية. ولولا وجود تلك العلاقة لما أرسل رأس الجالوت ببغداد العلماء اليهود لمساندة الحركة الإسماعيلية. ومن الجدير بالملاحظة أن علاقة مماثلة كانت بين الإسماعيلية ويهود القدس^(٥٣). علماً بأن كاتب الرسائل الإسماعيلية، الموجهة إلى ملك بيت المقدس الصليبي للاتفاق معه على القضاء على الحكم الأيوبي في مصر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م أثناء المؤامرة سابقة الذكر، كان يهودياً^(٥٤).

وقد علل بعض المؤرخين هذا الجانب في الحركة الإسماعيلية، واعتبره مذهباً من مذاهب الشمول في العقيدة Interconfessionalism^(٥٥) لأن الدعوة الإسماعيلية كانت عالمية لم تقتصر على الانتشار بين تابعي دين واحد فقط.

وقد وجد هؤلاء الإسماعيليون في صلاح الدين عدواً كبيراً لهم، فقد قضى على دولتهم الفاطمية في مصر، وتقدم إلى الشام لتوحيده وضمه إلى مصر، أضف إلى ذلك أنه من القادة السنيين، وفي هذا ما يهدد الكيان الإسماعيلي في منطقة الشام تهديداً خطيراً، لذلك تعاونوا مع الصليبيين والزنكيين (السنين) لأجل القضاء عليه، غير أن محاولاتهم لم تفلح. ففي سنة

(٥٠) من الأدلة التاريخية التي أوردتها (كاهين)، على إثبات وجود علاقة بين الإسماعيلية والاسبتاريين ما يلي:

١ في منطقة الرها كانت هناك أملاك لفرسان الاسبتارية، وكان للإسماعيلية في الرها أيضاً مركز لدعوتهم وكان ذلك المركز تحت سلطان الاسبتارية إدارياً في القرن ١٣م.

(Cahen, la Syria du-nord, P. 562).

٢ قتل الأمير الصليبي ريموند سنة ١٢١٣م في كنيسة انطربوس بيد الإسماعيلية مدفوعين من قبل الاسبتارية (نفس المصدر السابق: ٦٢٠)، وكذلك مقتل بوهيمند الرابع، الذي قتل بسبب الاختلافات التي كانت بينه وبين جماعة الاسبتارية. الذين استخدموا الإسماعيلية لقتله. وقد أكد كاهين أن أولئك الإسماعيلية كونوا مع جماعة الاسبتارية حلفاً واحداً - أيضاً - ضد المسلمين. (المصدر السابق: ٣٤٤).

(٥١) Hodgson, The order of Assassins, P. 208

(٥٢) رحلة بنيامين: ١٥٣-١٥٤.

(٥٣) Hodgson, Loc. Cit.

(٥٤) العماد الاصفهاني، البرق الشامي تلخيص البنداري، سنا البرق الشامي: ١ / ٨٢.

(٥٥) انظر: أصول الإسماعيلية: ١٩٤-١٩٨. من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام: ١٠٩ - ١١٠.

٥٧٠هـ/١١٧٤م عندما توجه صلاح الدين لحصار حلب، راسل سعد الدين كمشتكين _ أتاك الملك الصالح بن نور الدين- راشد الدين سنان، وبذل له أموالاً كثيرة^(٥٦)، وعدداً من القرى^(٥٧)، ثمناً لقتل صلاح الدين. فأرسل سنان مجموعة من فداوييه إلى المعسكر الأيوبي، فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين، فعرفهم لأن بلاده قريباً من بعض حصونهم، فقال لهم: «ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم؟»^(٥٨) وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتكم^(٥٩). فهجمو عليه وقتلوه، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقتل دونه وقاتل الباقيون من الإسماعيلية حتى قتلوا جميعاً، بعد أن قتلوا جماعة من المعسكر الأيوبي^(٦٠).

وقد اعتبرت هذه العملية ناجحة بصورة عامة، لأن صلاح الدين لم يتمكن من فتح حلب في تلك السنة، على أقل تقدير، فالمحاولة كانت خطيرة، لأنها كانت مفتاح العلاقة بين الجانبين في منطقة الشام، فقد أوضحت لصلاح الدين أن له أعداء حقيقيين من غير الزنكيين والصليبيين، وأنه يجب عليه أن يحسب لهم الحساب.

وعلى الرغم مما قيل من تحريض كمشتكين لراشد الدين بن سنان، غير أنه من المستبعد أن يكون ذلك التحريض هو المحرك الأساس الوحيد للقيام بتلك العملية لأن سنان كان يعمل لأسباب خاصة به، وهو أن صلاح الدين منذ أن دخل الشام أصبح العدو الرئيس للحركة الإسماعيلية، لأنه كان يهدف إلى إقامة وحدة السنيين هناك ومن الواضح أن إقامة مثل تلك الوحدة سيهدد كيان الحركة الإسماعيلية تهديداً خطيراً، كما أن تحقيق الوحدة السياسية بين مصر والشام يهدد إمارات الزنكيين، لذلك أصبح التقارب بين الأمراء الزنكيين والإسماعيلية أمراً طبيعياً، لأن صلاح الدين أصبح بالنسبة لهما العدو المشترك. وعلى هذا الأساس قبل سنان مساعدات كمشتكين المادية إلى جانب كسبه لتأييد أمراء حلب الزنكيين في سبيل تنفيذ مهمة قتل صلاح الدين.

غير أن فشل هذه المحاولة دفعت بسنان -مقدم الإسماعيلية- إلى التخطيط مجدداً للنيل من صلاح الدين. فأرسل إليه في ٤ ذي القعدة سنة ٥٧١هـ^(٦١) ٢٢ أيار ١١٧٦م جماعة من أتباعه بزي الأجناد، دخلوا بين المعسكر الأيوبي وباشروا الحرب معهم، حتى امتزجوا بهم، انتظاراً لفرصة مواتية يجهزون فيها على صلاح الدين فيقتلوه^(٦٢).

(٥٦) الكامل: ١١ / ٤١٩.

(٥٧) الروضتين: ١ / ٢٣٩، نقلاً عن ابن أبي طي: سنا البرق الشامي: ١ / ١٨١.

(٥٨) الكامل: نفس المصدر والمكان السابق.

(٥٩) سنا البرق الشامي: ١ / ١٨١.

(٦٠) الكامل: نفس المصدر والمكان السابق، الروضتين: ١ / ٢٣٩؛ مفرج الكروب ٢ / ٢٤؛ مرآة الزمان: ٨ / ٣٢٨؛ نهر الذهب: ١٠٠.

١٠١.

(٦١) النوادر السلطانية: ٥٢، وقيل أن سنان أرسل إلى صلاح الدين جماعة من فدائييه في ١١ ذي القعدة، الروضتين: ١ / ٢٥٨.

(٦٢) الروضتين، نفس المصدر والمكان السابق نقلاً عن ابن أبي طي.

وفي أثناء محاصرة قلعة عزاز التي كانت أهم حصون حلب - لأن «حصارها حصار حلب على الحقيقة»^(٦٣) - تقدم صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولي الأسدي لتشجيع العسكر على مواصلة القتال، وفي أثناء ذلك هجم عليه أحد الإسماعيلية وضربه بسكينة على رأسه^(٦٤)، وكان صلاح الدين محتزراً «لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد (من^(٦٥)) على رأسه»^(٦٦) فأحس الإسماعيلي بصفائح الحديد، فمد بالسكينة إلى خد صلاح الدين فخدشه، وجرى منه بعض قطرات من الدم، فأمسك صلاح الدين يد الإسماعيلي بيده، وجعله لا يقدر على الضرب بالكلية، ثم أدركه الأمير سيف الدين يازكوج وقتله، ثم هجم إسماعيلي ثان على صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلاان وقتله، غير أنه أصيب بضربة سكين توفي على إثرها بعد عدة أيام. ثم هجم إسماعيلي ثالث لتنفيذ المهمة، غير أن الأمير علي أبو الفوارس عانقه ولم يطلق سراحه حتى طعنه ناصر الدين محمد بن شيركوه بسيفه وقتله، وخرج آخر من الخيمة منهزماً، فثار عليه أهل سوق العسكر وقتلوه.

وأما صلاح الدين، فإنه عاد من وقته إلى خيمته وقد أذهلته المفاجأة ثم استعرض جنده فممن أنكره أبعد ومن عرفه أقره. وبعد ذلك أخذ بالاحتراز الشديد حتى أنه ضرب حول خيمته «على مثال خشب الخركاة»^(٦٧) تازيراً وأوثقه تحجيراً وجلس في بيت الخشب وبرز للناس كالمحتجب^(٦٨)، ثم أقام على عزاز وأحكم محاصرتها ثمانية وثلاثين يوماً حتى فتحها بكرة الأربعة ١١ ذي الحجة^(٦٩) من سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م. ولما فرغ منها سار إلى حلب لمحاصرتها، لأن من فيها من الأمراء كانوا أحد أسباب هذه الغدرة^(٧٠).

كان لهذه الهجمة صدى بالغ الأثر في نفوس العسكر الأيوبي، فقد توقف القتال بسببها ذلك اليوم^(٧١)، وهاج الناس واضطرب الجند حتى خاف بعضهم من بعض «فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر»^(٧٢).

(٦٣) سنا البرق الشامي: ١ / ٢٠٩.

(٦٤) الروضتين، نفس المصدر والمكان السابق، نقلاً عن العماد الأصفهاني. وقد لخص البنداري نفس الرواية السابقة في: سنا البرق الشامي: ١ / ٢١٠.

(٦٥) أضيفت (من) إلى النص ليستقيم المعنى، لأنها ساقطة من الأصل.

(٦٦) الروضتين، نفس المصدر والمكان السابق، نقلاً عن ابن أبي طيء.

(٦٧) الخركاة: لفظ فارسي معناه نوع من الخيم يتكون من قطع الخشب معقود بينها على شكل قبة. ويقال أنه أيضاً قبة تركية وتغطيها قطع من البلد. سنا البرق الشامي ١ / ٢١١ هامش رقم (٧)، انظر: النوادر السلطانية: ٢٨، هامش (٣).

(٦٨) سنا البرق الشامي: ١ / ٢١٢.

(٦٩) وقيل فتح صلاح الدين عزاز في ١٢ ذي الحجة، زبدة الحليب: ٣ / ٢٩.

(٧٠) الروضتين: ١ / ٢٥٨، ٢٥٩، مرجع الكروب: ٢ / ٤٤ - ٤٥، سنا البرق الشامي ١ / ٢١٢ - ٢١٣ وللمعرفة المزيد من المصادر والمراجع التي تحدثت عن هجمة الإسماعيلية الثانية على صلاح الدين انظر: النجوم الزاهرة: ٦ / ٧٦: البداية والنهاية: ١٢ / ٢٩٣: السلوك: ١ / ٦١ - ٦٢: تاريخ ابن الوردي: ٢ / ٢٢٣ شذرات الذهب: ٤ / ٢٣٨ - ٢٣٩: كنز الدرر: ٧ / ٦٠: الأخبار السنية: ١٢٩: نهر الذهب: ٣ / ١٠١ - ١٠٢: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢١٢.

Hodgson, op. cit. P. 188; Lewis, The Assassins, P. 14;

(٧١) البداية والنهاية: ١٢ / ٢٩٣.

Rosebult, Saladin, PP. 107-108 (٧٢)

حققت هجمة الإسماعيلية الثانية على صلاح الدين بعض أهدافها، ودلت من غير شك، على أن الحركة الإسماعيلية كانت دقيقة في تنظيمها وسريتها، وبراعة أساليبها في عمليات الاغتيال، فبالرغم من وجود عدد من الإسماعيلية داخل العسكر الأيوبي غير المعروفين، فإنهم لم يهجموا على صلاح الدين جميعاً دفعة واحدة. فربما حقق أحدهم هدف مجيئهم، فيظل الباقيون غير مكشوفين لتنفيذ مهمات أخرى. ولذلك فلا داعي لاشتراكهم جميعاً في هذه العملية، ولما لم يحقق الأول الهدف هجم الثاني ثم الثالث.

دفعت هاتان العمليتان صلاح الدين إلى أن يضع حداً لأولئك الإسماعيلية، الذين وضع خطرهم في الشام، وباتوا يهددون حياته وحياة أمرائه وأمنهم وكانت قلاعهم ممتدة على طول صفحة جبل لبنان، الذي كان حداً بين بلاد المسلمين ومناطق تواجد الصليبيين، كوجودهم في أنطاكية واللاذقية^(٧٣). وأهم تلك القلاع والحصون الإسماعيلية الممتدة هناك: مصياف^(٧٤) والقدموس والكهف^(٧٥) والعليقة والرصافي والمنيقة وغيرها^(٧٦).

لذلك كله رحل صلاح الدين في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م إلى هذه الحصون بعزم خرابها وقتل الإسماعيلية فيها. وقد تمكن عسكره من حصار بعضها ونصب عليها المجانيق الكبار، ثم أوسع من بداخلها قتلاً وأسراً وساق أبقارهم وخرب ديارهم^(٧٧).

غير أن صلاح الدين لم يتمكن من فتح قلعة مصياف، التي قاومت الحصار أسبوعاً. وتختلف الروايات فيما حدث، ولماذا انسحب صلاح الدين منها قبل أن يتم فتحها! وقد ذكر المؤرخ الإسماعيلي أبو فراس عدة روايات خيالية مفادها أن صلاح الدين انسحب من مصياف خوفاً من سنان وحفاظاً على حياته مما رآه وسمعه من الخوارج التي كان يقوم بها سنان ضده^(٧٨). ومن الروايات التي قيلت

(٧٣) الروضتين: ٢٥٨/١ - ٢٥٩ نقلًا عن ابن طيء..

(٧٤) رحلة ابن جبير: ٢٥٥.

(٧٥) كان حصن القدموس والكهف من الحصون التابعة لمعاملة طرابلس، وهما حصنان متيعان الظاهري. زبدة كشف الممالك: ٤٨.

يقع حصن مصياف على الساحل الشامي قرب مدينة طرابلس (معجم البلدان ١٤٤/٥) وكان من أمنع الحصون ولذلك اتخذ سنان مركزاً لحركته، وقد ملكه سنة ٥٣٥هـ بطريق الحيلة. ودخلوا فيه وقتلوا صاحبه مملوك بني منقذ أصحاب شيزر (الكامل: ٣٩/١١: ذيل تاريخ دمشق: ٢٣٣: الكواكب الدرية: ١١٣) وقد ورد هذا الحصن في الروضتين باسم (مصياف) (١٢٦/١) وفي الكامل (مصياف) (١٣٦/١١) وفي البداية والنهاية (مصياف) (٢٩٥/١٢).

(٧٦) القلقشندي: ٤ / ١٤٦ - ١٤٧.

(٧٧) الكامل: ١١ / ٤٣٦: الروضتين: ١ / ٢٦١: تاريخ الأزمنة: ٧٧.

(٧٨) أنظر النص العربي للمؤرخ الإسماعيلي أبو فراس الذي تحدث عن المولى راشد الدين سنان في المجلة التالية: Journal Asiatique, 7th Series, Vol. IX, 1877, PP. 455 - 459.

وقد نقلت بعض روايات أبو فراس في كل من المصادر التالية: تاريخ الدعوة الإسماعيلية: ٢١٢ - ٢١٣: شذرات الذهب: ٤ / ٢٩٤ - ٢٩٥.

Runciman, op. cit, II, P. 410.

Rosebault, Saladin, PP. 122 - 14

أن صلاح الدين راسل سنان وطلب منه التسليم، فأجابه سنان بالرفض، وذكر استعدادة لمحاربته وفي الليلة نفسها أرسل إليه سنان أحد فدائييه، فتمكن من دخول خيمة صلاح الدين ووضع له عند رأسه أشعاراً تنطوي على بعض التهديد^(٧٩). وفي الليلة التي أعقبها ضرب صلاح الدين حول خيمته نطاقاً من الحراس، وأمر بنشر الطحين حوالها. وفي الصباح وجد صلاح الدين سليماً، وقد بدل محل مصابيح خيمته. علماً بأن أحداً من الحراس لم يشاهد أي زائر من البشر يدخل إلى الخيمة، فاستولى على العساكر العرب، سيما وقد هبطت إليهم رسالة بواسطة سهم من مصياف جاء فيها: «ألا فاعلموا أننا نروح ونغدو كما كنا في السابق، ولن تعوقونا بحال من الأحوال»^(٨٠).

وقد نقل المؤرخ الإنكليزي روزيلت Rosebault عدداً من الروايات الإسماعيلية حول سبب مغادرة صلاح الدين مصياف، نذكر منها ما يلي: حاصر صلاح الدين سنان مع اثنين من مساعديه، وعندما أراد التقدم إليهم ببعض أمرائه للقبض عليهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على التقدم. لقد سيطرت عليهم قوة مخدرة جردتهم من قدرتهم. وقد انزعج صلاح الدين مما حصل، واعتقد أن هناك قوة خفية تعمل لصالح عدوه، لذلك طلب مصالحة سنان وكسب جانبه^(٨١).

إذن يرى الإسماعيلية أن الخوارق التي كان يعملها سنان والتهديدات التي كان يرسلها إلى صلاح الدين، هي التي عملت على فشل حصار مصياف والحقيقة أن هذه الروايات ضعيفة. فبالإضافة إلى عدم وجود ما يسند لها تاريخياً وعقلياً، فإن الإسماعيلية حاولت اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ولم تفلح في مسعاها. ولو صح أنها تمكنت منه -كما قالت هذه الروايات- لقتلته.

أما الرواية الثانية، فتقول أن عساكر صلاح الدين لما قتلت الإسماعيلية وخربت ديارهم، شفع فيهم خاله شهاب الدين -صاحب حماة- إذ كان راشد الدين سنان قد راسله في ذلك لأنهم جيرانه، فقبل صلاح الدين شفاعته خاله فيهم وترك حصار مصياف^(٨٢)، خاصة وأنه رأى من بعض أمرائه «ميلاً إلى الانكفاء»^(٨٣).

وقد أشار ابن الأثير إلى هذه الرواية الثانية، غير أنه ذكر أن راشد الدين سنان، لم يرسل شهاب الدين ويطلب منه التوسط لدى صلاح الدين بالكف عن حصار مصياف من باب الترجي

(٧٩) ومن أمثلة الأشعار التي أرسلها سنان إلى صلاح الدين ما قيل:

قام الحمام على البازي يهدد وكشرت لأسود الغاب أضبعه
إنا منحناك عمراً كي تعيش به فان رضيت وإلا سوف ننزع

شذرات الذهب: ٤ / ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٨٠) شعلة الإسلام: ٧١ - ٧٢.

(٨١) Saladin Prince of chivalry, PP. 112 - 114

(٨٢) الروضتين: ١ / ٢٦١.

(٨٣) سنا البرق الشامي، نقلاً عن العماد الاصفهاني: ١ / ٢١٨.

أو التوسل، إنما قال له: «إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه»^(٨٤). ويضيف ابن الأثير إلى ذلك بأن العسكر الصلاحي ملّ من طول الانتظار لعدم التمكن من فتح مصياف، وكانت أيديهم مملوءة بالغنائم التي كسبوها من عسكر الموصل وبلد الإسماعيلية، فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة، فأذن لهم صلاح الدين وسار هو إلى مصر^(٨٥). ولذلك انتهى حصار مصياف. والواقع أن فشل حصار مصياف لم يكن لتهديدات سنان لصلاح الدين ولخاله شهاب الدين فحسب، إنما كان خوفاً من هجوم الصليبيين على بلاد المسلمين ورغبة في عدم استنزاف المزيد من الوقت. ففي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين محاصراً للبلد، أغار الصليبيون على بعض البقاع فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم -متولي بعلبك- فقتل منهم جماعة وأسر أكثر من مائتين. وأحضرهم عند صلاح الدين على مصياف، فخاف أن يهيج الصليبيون في الشام الأعلى. وهو بعيد عنهم، فصالح سنان وعاد إلى دمشق^(٨٦).

ومما يدل على صحة هذا الرأي ما ذكره العماد الأصفهاني في البرق الشامي بقوله: «لولا هذا الحادث لم يصرف عنها الأحداث»^(٨٧) أي لولا هجوم الصليبيين -سابق الذكر- لم ينصرف صلاح الدين من حصار مصياف. وربما كانت وساطة شهاب الدين قد جاءت في الوقت الذي كان صلاح الدين عازماً على مصالحة الإسماعيلية.

وقد وقع ابن الأثير في أخطاء حيث ذكر إشارات تدل على وجود تعاون بين صلاح الدين والإسماعيلية، وأنه استخدمهم لاغتيال أعدائه من الصليبيين. ففي ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م قتل المركيس (كونراد) أمير مدينة صور^(٨٨). وكان سبب قتله -كما ذكر ابن الأثير- أن صلاح الدين هو الذي راسل مقدم الإسماعيلية في الشام -راشد الدين سنان- وبذل له عشرة آلاف دينار ثمناً لقتل ريتشارد فلم يمكنه قتله، ولم ير سنان مصلحة له في ذلك، فعدل عنه إلى قتل المركيس. فأرسل إليه اثنين في زي الرهبان إلى صور، مكثا في خدمته ستة أشهر حتى تمكنا منه وقتلاه^(٨٩). والحقيقة أن صلاح الدين لم يكن له أية علاقة بقتل الإسماعيلية للمركيس، لأن العملية كانت مدبرة بين راشد الدين سنان وريتشارد قلب الأسد. ومما يدل على ذلك ما يلي:

أولاً- أن المركيس كان قد عقد مع صلاح الدين معاهدة أظهر له فيها الطاعة من أجل

(٨٤) الكامل: ٤٣٦/١١.

(٨٥) نفس المصدر والمكان السابق.

(٨٦) الروضتين. نقلاً عن ابن أبي طي: ١ / ٢٦١.

(٨٧) سنا البرق الشامي. نقلاً عن الأصفهاني: ١ / ٢١٩: البداية والنهاية: ٢٩٥/١٢.

(٨٨) كان المركيس أحد كبار تجار الصليبيين قدم إلى صور سنة ٥٨٣هـ بعد معركة حطين. وتمكن من تحصين البلد. وحفر حوله خندقاً عميقاً من البحر إلى البحر في وقت انشغال صلاح الدين بفتح القدس والساحل الشمالي. البداية والنهاية: ٢ / ٣٢٧.

(٨٩) الكامل: ٧٨ / ١١ - ٧٩. تاريخ ابن خلدون: ٧١٣/٥.

التصدي لريتشارد الذي عاداه ورغب بالانفراد بزعامة الصليبيين في الساحل الشامي دونه^(٩٠). وكان صلاح الدين من جهته يرغب بالاتفاق مع الماركيس ومن مصلحته أيضاً أن يبقى الماركيس حياً لتستمر المعاهدة بين الجانبين، من أجل إضعاف قوى الصليبيين في الشام عن طريق إثارة النزاع بين الماركيس وريتشارد. وقد دلّ على ذلك العماد الأصفهاني بقوله: «ولم يعجبنا قتله وإن كان من طواغيت الضلالة، لأنه كان عدو ملك الإنكليز ومنازعه»^(٩١).

ثانياً- بعد استقراء المصادر التاريخية ظهر بأن ثمانية مصادر رجحت الرواية القائلة بأن مقتل الماركيس كان بتعاون ريتشارد مع راشد الدين سنان، وأن روايتين فقط اتهمتا صلاح الدين بتدبير تلك العملية^(٩٢).

ثالثاً- من الواضح أن اتفاقاً بين صلاح الدين والماركيس يهدد مصالح ريتشارد في منطقة الشام، ولذلك فمن الطبيعي أن يتعاون ريتشارد مع سنان لأجل قتل الماركيس خاصة وأن الإسماعيلية كانوا من أنصار فرسان الاستارية الصليبيين، وكان الماركيس من جماعة فرسان الداوية الصليبيين^(٩٣).

على أية حال فإن الصلح تم بين الإسماعيلية وصلاح الدين، ولم أجد في المصادر التاريخية، بعد هذه الفترة، أية إشارة لهجوم الإسماعيلية على صلاح الدين أو بالعكس. والذي يبدو أن صلاح الدين اتبع معهم سياسة حكيمة جعلتهم يقفون على الحياد ليتفرغ للصليبيين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية^(٩٤).

علماً بأن الإسماعيلية رغبوا في الصلح قبل صلاح الدين، لفشل محاولاتهم المتكررة لاغتياله، وعدم وجود قوة عسكرية إسماعيلية تتمكن من التصدي للقوات الأيوبية لذلك فضلوا وقوف صلاح الدين على الحياد، على أن يكون عدواً مباشراً لهم. وكان صلاح الدين من جهته يرغب بمصالحتهم لحصانة قلاعهم وتهديدهم لحياته وأمنه، ورغبته في التفرغ إلى الجانب الأكثر خطورة على مستقبل سياسته ودولته. وكانت تلك الخطورة متمثلة في تفكك الإمارات الزنكية ورغبته بتوحيدها وضمها إليه أولاً والقضاء على قوى الصليبيين في الشام وتحرير القدس ثانياً.

(٩٠) الأصفهاني. الفتح القدسي: ٣٩٨.

(٩١) الأصفهاني. الفتح القدسي: ٤٢١.

(٩٢) كانت المصادر التي رجحت تبرئة صلاح الدين من الاشتراك في عملية قتل الماركيس هي: الفتح القدسي: ٤٢٠-٤٢١؛

النوادر السلطانية: ٢٠٨؛ الروضتين: ٢ / ١٩٦؛ مفرج الكروب: ٢ / ٣٨٢؛ مرآة الزمان: ١ / ٨٥ / ٤٢٠؛ الأنس الجليل: ١ / ٣٨٥؛

تاريخ الأزمنة: ٩٣؛ انظر: مختصر تاريخ العرب: ٢٣١ / ٣٢٢.

Rosebault, Saladin, P. 283; Hodgson, The order of Assassins, P. 189, Lewis, The Assassin's P. 117.

أما الروايتان اللتان اتهمتا صلاح الدين بتدبير العملية، فهما في الحقيقة رواية واحدة، لأن ابن خلدون نقل روايته عن

ابن الأثير، وابن الأثير، كما تبين من قبل لم يكن من محبي صلاح الدين. انظر: الكامل: ١١ / ٧٨ - ٧٩. تاريخ ابن خلدون:

٧١٣ / ٥.

Cahen, la Syrie du nord... P. 562. (٩٣)

Kritzcek, Anthology of Islam. P. 162. (٩٤)

سياسة صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية

كانت سياسة صلاح الدين، في تنفيذ مخططة بالإجهاز على الخلافة الفاطمية دون تقديم أية ضحايا. ومن غير إثارة المصريين عليه. حيث وضع على كل أمير فاطمي جماعة من أمراء الشام وأجنادهم. وتجهز الأمراء تحت جناح الليل، ولبسوا سلاحهم، وأحاط كل واحد منهم ببيت أمير من أمراء مصر الفاطميين المشكوك في أمرهم. فلما أصبح الصباح وخرجوا على عادتهم، أحاط بهم الأمراء والجند الأيوبيون من كل جانب وقبضوا عليهم واستولوا على دورهم وذخائرهم. ولما علم الخليفة العاضد بما جرت عليه الحال أوضح له صلاح الدين بأنهم أمراء عاصون، وأنه إنما قصد تعويضه بأحسن منهم^(٩٥).

ومن جهة ثانية فقد كان صلاح الدين يتمهل في القضاء على الخلافة الفاطمية حتى يمهّد لذلك الانقلاب ويعدّ له لئلا يعصف ذلك العمل بمصالحه ومصالح أسرته وقد نجح في مسعاه بحيث أن الانقلاب تم دون أن ينتطح فيها عنزان^(٩٦). ومع ذلك فإن ابن الأثير يتهم صلاح الدين بأنه كان يريد بقاء الخلافة الفاطمية خوفاً من نور الدين «فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد معه، حتى هذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه^(٩٧)».

إن ملاحظة الأعمال التي قام بها صلاح الدين من عزل القضاة الفاطمية، وإزالة الأذان بحي على خير العمل، والقبض على امرأة القصر الفاطمي لدليل على ضعف إيهام ابن الأثير ذلك الاتهام الذي اضغفه أيضاً ما ذكره في تاريخ الدولة الأتابكية بقوله: (لما ثبت قدمه في مصر (أي صلاح الدين)... كتب إليه الملك العادل نور الدين يأمره بقطع الخطبة العاضدية... فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر...)^(٩٨).

ومعنى الخوف (الحذر) ومن ثم التخطيط بحزم وهو ما كان يقوم بتنفيذه صلاح الدين، فتأخر عن قطع الخطبة الفاطمية حتى لم يبق له معارض في مصر، علماً بأن ابن الأثير يمثل وجهة النظر النورية، وكتابات لا تخل من تحيز ضد صلاح الدين، وقد ذكر نفس الاتهام عندما أوضح الدوافع التي كانت وراء فتح اليمن^(٩٩).

ومن جهة ثانية فإن صلاح الدين - سواء بحكم عقيدته السنية التي كان يحملها أو بدوافع حبه في السيطرة والاستقلال - كان يرغب بإزالة الخلافة الفاطمية ليكون لنفسه ولأسرته دولة فيها، وهذا لا يتأتى، إلا إذا سقطت الدولة القائمة ولذلك فإن هدف نور الدين وصلاح الدين كان واحداً، غير أن أسلوبهما في إزالة الدولة الفاطمية كانا مختلفين.

(٩٥) نفس المصدر السابق ٤: ١٣٠/١.

(٩٦) ابن الأثير: الكامل: ١١ / ٣٦٩.

(٩٧) نفس المصدر السابق: ١١ / ٣٦٨.

(٩٨) الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية: ١٥٦.

(٩٩) الكامل: ١١ / ٣٩٦.

وما أن وجد صلاح الدين أن اهبطته قد تمت، وأنه قادر على القيام بانقلابه قطع الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي وأقامها للمستضيء العباسي في محرم سنة ٦٧هـ - أيلول ١١٧١م^(١٠٠). وبذلك أعيدت الوحدة بين مصر والشام من جديد مذهبياً وإقليمياً وأصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة التي يدين لها جميع المسلمين في الولاء فنشأت طاقة مادية وبشرية سنرى ظهور آثارها فيما بعد^(١٠١). بعد أن كانت الوحدة قد قطعت مدة حكم الفاطميين مصر لحوالي مائتين وثمانين سنة، وقد امتدح الشعراء ذلك الانقلاب وأعلن أحدهم بقوله:

أصبح الملك بعد آل علي مشرفاً بالملوك من آل شادي
وغدا الشرق يحسد الغر ب للقوم فمصر تزهو على بغداد^(١٠٢)

وتجمعهم المصريون من أهل السنة تعبيراً عن فرحتهم بالانقلاب، واستطالوا على الفاطميين (وتتبعوهم وأذلّوهم وصاروا لا يقدرّون على الظهور من دورهم)^(١٠٣).

وتسلم صلاح الدين بعد ذلك القصر الفاطمي وما حواه من ذخائر وقبض على أولاد العاضد وحبسهم في مكان واحد من القصر، بعد أن أجرى عليهم ما يُمونهم^(١٠٤). وكان العاضد أثناء ذلك مريضاً، فلم يعلمه أحد من أصحابه بما جرت عليه الأحوال، ثم توفي في العاشر من محرم سنة ٥٦٧هـ وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وعشرين سنة^(١٠٥).

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية صدى بالغ الأثر في نفوس المصريين خاصة والعالم الإسلامي عامة، صحبتها هزة فرح عمت أوساط الذهب السني، وكانت البشائر التي كتبها العماد الأصفهاني تقرّأ في كل مدينة وقرية حتى وصل حاملها إلى بغداد، ولما انتهى الخبر إلى نور الدين أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون (فزينت بغداد وغلقت الأسواق، وعملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً)^(١٠٦). وأرسل الخليفة العباسي الخلع الثمينة إلى كل من نور الدين وصلاح الدين، كان من بينها سيفان أحدهما قلّد المستضيء به الشام لنور الدين والثاني مصر لصلاح الدين على أن يكون صلاح الدين نائبه فيها^(١٠٧).

(١٠٠) ابن شداد، النوادر: ٤٥؛ الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية: ١٥٧؛ البنداري، سنا البرق الشامي: ١ / ١١١١ - ١١١٤؛ ابن الوردي، التاريخ: ٢ / ١١٣؛ اليافعي، مرآة الجنان: ٣ / ٣٧٩؛ القلقشندي، مآثر الأناقة: ٢ / ٥١.

(١٠١) القزاز، الحياة السياسية، المصدر السابق: ٢٥٠.

(١٠٢) ابن كثير، البداية: ١٢: ٢٦٧.

(١٠٣) الروضتين: ١ / ١٩٧؛ الأصفهاني، خريدة القصر: ٣ / ١: ٢٠٣.

(١٠٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ٥ / ٣٤١؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية: ٢٠٠.

(١٠٥) وكان مولده سنة ٥٤٤هـ وبويع الخلافة سنة ٥٥٥هـ، وقيل في سبب موته أنه تفكر في أموره فأصابه ذرب مات عنه. وقيل لما خطب لبني العباس بلغه ذلك فاغتم ومات. وقيل كان في يده خاتمة له فص مسموم فمسه فمات على أثر علمه بزوال ملكه، انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ١، ص ٢٩٠؛ ابن كثير: ١٢ / ٢٦٤ - ٢٦٥؛ ابن خلكان، الوفيات: ٦: ١٥٦ - ١٥٧؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة: ٧١.

(١٠٦) ابن كثير، البداية: ١٢ / ٢٦٤؛ المقرئ، السلوك: ١ / ٤٤.

(١٠٧) النجوم الزاهرة: ٦ / ٦٤. والبحث في فصول كتاب سياسة صلاح الدين الأيوبي، تأليف: دريد عبد القادر، بغداد ١٩٧٦ (٣٦٣-٣٨٩)، والكاتب أحد الباحثين العراقيين ولد في الموصل وحصل على الدكتوراه من كلية الآداب - جامعة بغداد عن رسالته «انتشار الإسلام في السودان الغربي: دراسة في التأثيرات السياسية والإدارية والاقتصادية من القرن ٥ - ١١هـ» وله عدد وافر من الكتب والأبحاث التاريخية.